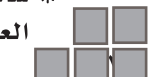
تجربة شعر الأطفال في سورية

بيان الصفدي *

بداية لا بد من التفريق بين الكتابة للأطفال وأدب الأطفال، فالكتابة للطفل تشمل كل أشكال الكتابة التربوية والمعرفية التي يمارسها تربويون وصحفيون، وتشكل المادة الرئيسية في منشورات الأطفال المسموعة والمقروءة والمرئية، أما أدب الأطفال فيعني الكتابة الفنية ذات الخصائص اللغوية والفنية والتربوية في إطارها الإبداعي، ويمارسها كتاب محترفون لديهم الكفاءة والموهبة لتحقيق تلك الخصائص السابقة.

* شاعر وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.



البدايات

لقد سبقت مصرُ التجربةَ السورية في شعر الأطفال قليلاً، إلا أن البدايات تكاد أن تكون متقاربة، ففي الوقت الذي ترجم فيه محمد عثمان جلال نظماً حكايات لافونتين في منتصف القرن التاسع عشر في «العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ»، فإن الوقت لم يتأخر برزق الله حسون حتى ترجم حكايات عن الروسية لرائد أدب الطفل الروسي كارانفيلوف في كتابه «النفثات» الصادر عام ١٨٦٧، نضيف إليها ما فعله الأديب السوري جرجس شلحت الذي نقل حكايات فنلون في كتابه «النخبة من أمثال فنلون» عام ١٩١٠، ودخلت بعض نصوصه في الكتب المدرسية لما امتازت به من سهولة قياساً إلى الحشو والارتباك الذي طبع تجربة حسون التي عانت من التصنُّع الشديد في نظمها.

وهذه البدايات التي اقتصرت على الترجمة للقصص نظماً خصيصة طبعت البداية الأولى في مصر وسورية وغيرهما، ومن الطبيعي هنا أن نذكر أن الحماسة لنقل الأصل الأجنبي فيها إحساس طبيعي بالتقليد الذي يطبع الضعيف، لأن أغلبية الحكايات المنقولة إلينا كانت ذات أصل عربي مشهور أو جذر شرقي عموماً ولم يكن شعرائنا بحاجة إلى نقلها عن مصدر أجنبي.

ومن غرائب الترجمة وطرائفها أن الأديب السوري إلياس قدسي قام بترجمة مجموعة من حكايات لافونتين بالعامية الدمشقية بعنوان «نوادر وفكاهات من أحاديث الحيوانات» في كتاب

منشور عام ١٩١٣، ولنأخذ مقطعاً بسيطاً من ترجمة القدسي بعنوان «الجيز والنملة» لنتعرف إلى أجوائها:

غنى الجيز طول الصيف
إجا وقت الكانونه
ما التقى عنده يا حيف
ولا حتحوته للمونه
لا قمحه ولا زيوانه
ولا دوده ولا دبّانه
قال « النمله غنيه
وخزاينها ملانه»
أسرع لعند النمله
يشكي جوعه والقله
قال القرضه بين الناس
عطيني لوقت الغله

(نوادر وفكاهات ص٥)

من الطبيعي أن يكون الكتاب المدرسي هو الوعاء الأبرز والحافز الأقوى في أدب الطفل حتى بداية السبعينيات، عندما راح الكتّاب ينطلقون في أدبهم من إحساس

مستقل عن الـروح المدرسية الخالصـة ، وبدافـع فنـي وتربوي معاً .

ومن اللافت لنا أن البداية الأولى في شعـر الأطفال قد اقتصرت على الترجمة شعرا ً، أو الاستعانـة بنصوص من الشعر العربي القديم السهل والمناسب بقيمه للطفل غالبا ً ، كمـا في الكتـب المدرسية الأولى التـي يعود أقدمها إلى عام ١٨٦٦ كما في كتاب لويس صابونجـي «أصـول القراءة العربية» وكانت مراكز التأليف في هذا الباب تتركز في بيروت وحلب ودمشق والقدس.

إن أغلبيـة الذين انتبهوا إلى كتابة القصائد والأناشيد للطفـل كانـوا معلمين قاموا هـم أنفسهم بتأليـف الكتب المدرسية، كما لدى جرجس همـام وجرجس عبد الملـك وأديب التقي وحليم دموسـ ومصطفى الغلاييني وسليم الحنفـي وحسنـي كنعان وجميـل سلطان وعمر يحيى وفخـري البارودي ومصطفى الصـواف وعـز الديـن التنوخـي وعبد القـادر المبـارك ومحمد الحومـاني وعبد الكريم الكرمي ونصرة سعيد وعبد الكريم الحيـدري وأنور العطار وأمجد الطرابلسي وميشيل الله ويردي وإدوار مرقص وتيسير ظبيان وغيرهم.

وعند مراجعـة التجارب التي تعود إلى الثلـث الأول من القـرن العشرين نلاحظ أن الشعـراء قلمـا استطاعـوا أن يراعوا الشروط اللغويـة والنفسيـة للطفل ، كما إن روح الوعـظ صارخـة في أغلبهـا ، فلو

أخذت نموذجاً لأحد أشهر رواد قصيدة الطفل وهو سليم الحنفي لوجدنا مجموعة من المواعظ والإرشادات المباشرة المتكررة والمتشابهة، لكنه نموذج مميز في تنويعاته في الوزن والقافية بعنوان «باب العلا»:

يا بن العرَبْ لبَّ الطلبْ قد فتحتْ أبوابها
عزُّ الأدبْ فوق النسبْ لذا دعتْ طلابها
يا بن ودِّي خذ بجدٍّ
فهو مُجْدِ للمَلا

(علم الموسيقى ص ٣)

ووجدنا للشيخ المربي والنحوي الشهير عبد القادر المبارك ثلاث قصائد للأطفال تعود إلى بداية القرن العشرين، يغلب عليها طابع النظم التقليدي الوعظي المباشر، يقول في إحداها:

يا بنة العرب الصغيره
بادري نحو العلا
ولتكن بنت الجزيره
زهرة بين الملا
إن أسلافك كانوا
زينة القوم الأُلى
فلْيَسُدْ نَسْلُكِ علماً
ولْيُضاهِ الدولا

(سلسلة المحفوظات العربية ١٤/١)

لكن ذلك لم يمنع من إضاءات حقيقية كما في قصيدة «طلاب العلوم» لحسني كنعان:

نحن طلاب العلومْ
زهرة المستقبلِ
نزدهي مثل النجومْ
في الهزيع الأول
...
قد ألِفنا الكتبا
وعشقنا الأدبا
ورضينا التعبا
رغبة في الأملِ

(سلسلة المحفوظات العربية ١٢/١)

أوكما في قول جرجس عبد الملك:

الأم
انزلْ ولاعبْ ولدي
يا قمرُ انزل بالعجلْ
ابني سروري مهجتي
أحييت في قلبي الأملْ
القمر
إني أجول في الفضا
حتى أرى كل البشرْ
كل ينادي قائلاً
أهلاً وسهلاً يا قمرْ

(مجموعة الأغاريد ٤٠/١)

وكما نجد في القصيدة الوحيدة التي عثرت عليها للشاعر عبد الرحمن قات بعنوان «ألعوبة» وهو نص نادر في شدة إخلاصه لما تتطلبه الطفولة من لغة بسيطة

وعالم خيالي عذب وخصوصيته كأغنية مؤلفة لتتكامل مع لعبة معينة:

الطابة الخضراء:

لي طابة ظريفهْ
قد اشتراها لي أبي
خضراءُ لونها حسنْ
يا فرحي يا فرحي

الطابة الزرقاء:

أما أنا يا إخوتي
هل تعرفون طابتي
زرقاء مثل بطتي
ألهو بها معْ قطتي

الطابة الصفراء:

وها أنا لي طابهْ
صفراءُ كالليمونهْ
أعطتْنِها صباحاً
والدتي الحنونهْ

الطابة الحمراء:

لي طابة طيَّارهْ
ألهو بها مع سارهْ
حمراءُ ما أجملها!
تنطُّ مثل الفارهْ

الجميع إلى الحمراء:

لم نرَ قطعاً مثلها
حقاً جميل شكلها

الحمراء:

هيا إذن هيا بنا
نلعبْ بها جميعنا
ها قد وصلنا الملعبا
يا مرحبا يا مرحبا

الجميع:

احذر احذر أين الطابهْ؟
الطابة ضاعت لا لا لا

(مجموعة الأغاريد ص٣٥)

هذا اللون المبتكر والنادر والمتفهم حقاً لضرورة النظر إلى الكتابة للطفل بوعي وانحياز كامل سنجده متفرداً عند الشاعر عز الدين التنوخي، ومن الطريف أن أكثر النصوص التي عثرنا عليها له تتخذ من الألعاب إطاراً لها، كما في «فرخ البط» ويبدو أن التنوخي قد ألفها للأطفال الصغار جداً، كما نلاحظ من بنائها اللغوي والصوتي والمعرفي:

انظر فرخ البطْ
فرخ البط عوَّامْ
سابحاً في الشطْ
ينشد الأنغامْ
فمن طربهْ
مرحاً يميلْ
ومن زغبهْ
اللؤلؤ يسيلْ
واق...واق...واق...واق

(الأناشيد المدرسية ٥/٢)

والشاعر نفسه يكتب بطريقة مختلفة

عندمـــا يتوجه بقصيدة إلى سنٍّ أعلى، كما في «أنشودة الفتاة العربية» التي نقرأ منها:

نحن أنوار الهدى نجلو سحابات العمى
لا نرى للمجد إلا العلم يوماً سُلّما
علّمونا ، علّمونا، نَحْمِ بالعلم الحمى
إنّ في الدار لمجداً بالمعالي مُعْلَما

(سلسلة المحفوظات العربية ٢/ ٢١)

وعندمـــا نتأمـــل تجربـــة أحـــد الرواد الأوائـــل وهو مصطفـــى الصواف نجد أنه كان مضطراً لكتابة الأناشيد العديدة لغرض التلحـــين ، لأنه موسيقي أساساً، وإن كانت النصوص ضعيفة أو خليطـــاً من العامية والفصحى كما في قوله:

قـد أشـرق الفجـر ولاحْ
مستبشراً والديك صاحْ
كــــو كـــــو كــــو
نـــامْ يـابـنـي إن الـليـلْ
جـاء وقـد ولّـى الـنـهـارْ
دو دو دو دو

(علم الموسيقى / ص٧٦)

وأسهم المناضل الوطني المشهور فخري البـــارودي بعدد مـــن الأناشيـــد المدرسية ومنها:

ســـــيروا بــجــدٍّ في المَـــلا
وامــشــــوا بـنـــا إلى الـعـلا
فـــلا تـــنـــال الأمـــــلا
إلا بـــجــــدٍّ واجــتـــهـــادْ

(منتخبات الأناشيد العربية ص٤)

ويناصـــر تعليم الفتـــاة في نشيد «أغنية الفتاة»:

يــا بـنـي الـشــام اسـتـفـيـقـوا
حـسْـبـكـم ذاك الـسُّـبـاتْ
عـبـثـاً نـيـل المـعـالي
دون تـعـلـيـم الـفـتـاةْ

(سلسلة المحفوظات العربية ١/ ٢٩)

وكان المربـــي الكبـــير أديـــب التقي من النشيطين في شعـــر الأطفال ، وله تجارب لافتـــة في تلك المرحلـــة ، وقد ذكر الزركلي في أعلامـــه أن له ديوانـــاً للأطفال اسمه «أغاريـــد التلاميذ» لكـــن لم نستطع العثور عليه، ولا شك أن غياب هذا الديوان يشكل ثغرة مهمـــة في تغطية البدايـــات في شعر الأطفال في سوريـــة، ومن قصائده «صوت الجدود»:

وطـــنـــنـــا يـــنـــدبـــنـــا
لـلـسـعـي والجِـــدِّ الـكـثـيرْ
أمـــتـــنـــا تـــرقـــبـــنـــا
يـا أيـهـا الـطـفـل الـصـغـيرْ
وطـــنـــنـــا لـــه حـــقـــوقْ
مـثـل حـقـوق الـوالـديـنْ
قـعـودنـا عـنـه عـقـوقْ
مـثـل عـقـوق الأبـويـنْ

(مجموعة الأغاريد ٣/ ١٢)

وينشد التقي في «روابي قاسيون»:

يــا روابـــي قــاســيــونْ
كــل قــلــب فــيــك هــامــا
كــلــمــا زاد بــعــاداً
زاده الــبــعــد هــيــامــا
أنـــت لــلــغــوطــة حــرْزٌ
صــانــكَ الله دوامـــا
مــا ســمــا صــخــرك إلا
لــيــحــاذي الــنــجــمَ هــامــا
أدرتْ تــلــك الــرواســي
وهــي شُــمٌّ تــتــســامــى
أنــهــا قــامــت تــحــيِّــي
مــن مُــعــلاَهــا الــشــآمــا؟

(ديوان التقي ص٢٣٢)

وجميل سلطان من الأعلام البارزين الذين أسهموا في التأسيس الحقيقي المبدع لشعر الطفل في بلدنا ، وقد عثرنا له على قصيدة تعود إلى عام١٩٢٧بعنوان «الولد والعصفور» يقول فيها :

خــلِّ عــنــك الــوهــمــا
وتــلــقَّ الــعــلــمــا
يــا فــتــى كــن شــهــمــا
وامــضِ لــلــمــدرســةِ

(علم الموسيقى ص ٨٣)

ثم واصل الشاعر جهده الكبير المستند إلى معرفة حديثة عزَّزها الاطلاع على التجربة الفرنسية من خلال دراسته الأكاديمية، وعندما عاد إلى دمشق صار من أهم رجال التربية، وأنجز أفضل الكتب المدرسية، وراح يضع نصوصاً من نظمه ، ويدرجها في تلك الكتب، ولعل النص المكتوب للطفل لا يحقق شهرة أو مكانة ثقافية واجتماعية آنذاك، لهذا يلفت النظر أن الكثير من تلك النصوص مذكور من دون تسمية للمؤلف، وأحياناً نقرأ حرف «ج» أو «ج س» وهو أمر فعله آخرون كعبد الكريم الحيدري.

أما الحيدري فهو في رأيي أهم من كتب للأطفال في بلدنا حتى السبعينيات، ومجموعته المهمة «حديقة الأشعار المدرسية» تؤهله ليكون رائد شعر الأطفال الحقيقي في سورية ، لما في نصوصه من جمال ورقة وطفولة وسلاسة وعذوبة.

وفي المقدمة التي يفتتح بها المجموعة نقرأ شيئاً عن بعض الدوافع التي وقفت وراء اهتمامه إذ يقول:

«أبناء الوطن وبناته الأعزاء: هذه قصائد نظمتها لكم قديماً وحديثاً ، أما قديمها – وهو النزر اليسير- فقد نشرته في «مجلة الطفل» وما كاد يظهر حتى تهافت عليه نخبة من كبار الأساتذة المؤلفين، ودونوا مختارات منها في مؤلفاتهم ، فسرني اختيارهم كثيراً، إذ دلني على أنني كنت موفقاً في إرضاء ميولكم اللطيفة وأمانيكم الطيبة.

وهذا التهافت امتزج برغبتي الصادقة في تقدمكم، فحملني على أن أجمع قصائدي المدرسية، وأن أنسقها وأخرجها مشروحة منقحة في هذا الديوان الصغير الذي أضعه بين أيديكم في ثوب أنيق.».

والشاعرة المربية جسماني شقرا التي استطعنا نفض الغبار عن مجموعتها المجهولة اليتيمة «روضة الأطفال» مازالت مجهولة من قبل الدارسين، إنها واحدة من الصفحات المطوية، استطاعت في عام ١٩٢٧أن تسجل اسمها في سجل الرواد الحقيقيين لشعر الأطفال في سورية.

وربما يكون نصرة سعيد من القلائل الذين أولوا شعر الأطفال اهتماماً استثنائياً، وهو صاحب المجموعة المبكرة الصادرة في حلب عام ١٩٤٥ «أغاني الطفولة» فوضع العديد من القصائد، لعل أجملها وأكثرها نجاحاً «الجمل»:

مَن حَمَلْ
واحتملْ
في العملْ
كالجملْ؟
ما أنفعكْ!
ما أرفعكْ!
هوب هوب هوب يا جملْ
أنت سفينة البراري
بلا شراعٍ أو بخارِ
لولاك سكان القفارِ
لم يسلكوا عبر الصحاري
مهما يصرْ
دوماً يسرْ
في البرِّ
في الحرِّ
في القرِّ

(النشيد والموسيقا / الفرا ٩٢)

ويقلل من أهمية تجارب بعضهم أن الصياغة فيها تكون غالباً للكبار، مفردة وجملة وطريقة تعبير، ولنأخذ مثالاً بارزاً على ذلك قصيدة «الطفل القاسي» لأمجد الطرابلسي:

أيها الطفل وهل أقبح من طفل غشومْ
ما جنى ترْبُك حتى سيمَ ألوانَ الهمومْ؟
أمه يا طفل تبكي في دجى الليل البهيمْ
تتمشّى فوق أغصان الرُّبى مشيَ سقيمْ
غاب لا تدري أحيٌّ هو أو بعض الرميمْ؟
عُدْ به للوطن الغالي ولـلأمِّ الـرؤومْ
كن رحيماً إنما الإنسان ذو القلب الرحيمْ

(الكتاب الوحيد ص٣٠)

إن أسماء عديدة أسهمت في كتابة الشعر للأطفال بقصيدة أوعدة قصائد في مرحلة ما قبل مجلة «أسامة» ومن أهم المساهمين خلال ستين عاماً أويزيد - غير من ذكرناهم - بدر الدين الحامد وشفيق

جبري وخير الدين الزركلي وسليم الزركلي وخليل مردم وتيسير ظبيان وعمر يحيى وفخري أبو السعود ونهاد الطرزي وعبد المجيد المشوح.

إن أبرز مشكلة تواجه الباحث في شعر الأطفال هي ندرة المصادر، وندرة الدراسات الباحثة والفاحصة في أدب الطفل عندنا، كما إن مادة شعر الأطفال بحد ذاتها مبثوثة في الكتب المدرسية غالباً، والمطبوع من الدواوين نادر أومفقود ، ويعز الحصول عليه، لذلك فقد اضطررت مثلاً إلى مراجعة كتب القراءة والمحفوظات التي استطعت الحصول عليها ، منذ بداية نشرها في بلاد الشام كلها.

ولابد من التنبيه هنا إلى أن التجربة التي أشرنا إليها قد ضمَّت أسماء من بلاد الشام، قبل تشكل ما يعرف رسمياً اليوم بسورية ، الجمهورية المستقلة، وذلك لأن بدايات التجربة ضمت إما شعراء ما قبل ذلك التشكل الجديد، أو شعراء ظلوا على ولائهم للوطن الأكبر، سواء أكانت سورية أم الوطن العربي كله، غير معترفين بما فعله الاستعمار ، بل إن بعضهم عاش لسنوات في سورية بعد تحولها إلى الكيان الحالي، و تولى مناصب رسمية أو تعليمية او أدبية كحليم دموس وعز الدين التنوخي ومحمد الحوماني وعبد الكريم الكرمي ومصطفى الغلاييني وحسني كنعان.

النقلة الكبرى

كانت ولادة مجلة «أسامة» في الأول من شباط عام ١٩٦٩ الحدث الأهم في مسيرة شعر الأطفال في بلدنا، فقد حرَّضت الشعراء على الكتابة، ووفرت لهم المنبر الدائم، خاصة عندما انطلقت من جهة رصينة تحمل هماً ثقافياً وطنياً متمثلاً بوزارة الثقافة، وهذا حمى المجلة كثيراً من الوقوع فريسة الاستغلال والاستسهال واللهاث وراء الربح بأي شكل ، الأمرالذي طبع المجلات الخاصة التي سبقتها أو ولدت بعدها على قلتها.

وكان من أهم ما ميز مجلة «أسامة» حتى عربياً أن هيئة تحريرها الأولى ضمت نخبة من الأسماء الأدبية اللامعة المشهود لها بالكفاءة هم سعد الله ونوس وزكريا تامر وحسيب كيالي وعادل أبو شنب ومحيي الدين صبحي ونجاة قصاب حسن وسليمان العيسى ودلال حاتم وميشيل كيلو وحامد حسن وغيرهم فيما بعد.

وفي حركة تكاد تكون متزامنة مع المجلة انطلق اهتمام ملحوظ بشعر الأطفال، من خلال عناية وزارة الثقافة واتحاد الكتاب العرب بنشر كتب أدب الأطفال، والبدء

بالإعــلان عــن مسابقات أدبيــة متنوعة، فشهدنــا حراكاً معقــولاً نشَّط التجريب والمحــاولات المتنامية ، ومن يراجع الأسماء التي حاولت كتابة شعر الأطفال فسيدهش من العــدد والتنــوع الذيــن انسحبا على أشخاص من مشارب فنيــة وفئات عمرية شديــدة الاختلاف ، وبعض هــذه الأسماء قــد نشط ونشر مجموعــة شعرية أو أكثر ، ومجموعاتهــم تبلغ الآن مــا يزيد على مئة ، طبع أكثرها في سورية ، والقليل خارجها.

وقد نشــرت مجلة «الطليعي» الكثير من الشعر، وما زالــت، لكن الضعف هوالسمة الغالبــة، حيث تضعف لديهــا أكثر المعايير الأدبية والفنية المناسبة.

إن نظــرة فاحصــة في شعــر الأطفال تكشف أن أكثره محاولات لم تستطع الوصول إلى الطفــل، ولا الكشف عن شاعرية حقة، فغلب الاستسهال والنظم ، بل شاعت ركاكة تصل حد العجز عن امتلاك اللغة والوزن ، وهو شرط أولي هنا.

إن خصائص القصيدة الطفلية نوجزها بالتالي: الروح الطفولية والجملة البسيطة والأوزان القصيرة والمفردة السهلة و التنويع في الــوزن والقافيــة و القِصَــر في النص والحركة والقَصُّ والطرافة والابتعاد عن الضرورات الشعرية والتركيز على الجرس والأصوات الطبيعيــة والتكرار و التعليمية والتربية.

والشعراء الذيــن يكتبون مراعين هذه الخصائصــ الضروريــة قليلــون جــداً، ونستطيــع أن نسمي منهم بعد السبعينيات : سليمــان العيســى ونجاة قصــاب حسن وياسر المالح وحامد حسن وشوقي بغدادي ومصطفى عكرمة وجمال علوش ومصطفى خضر ووفيق خنسة وخير الدين عبيد وركان الصفــدي وموفق نادر ولينــا تقلا وسمير رافع وابراهيم ياســين ومحمد وحيد علي وأسعــد الديري إضافة إلى محاولات أخرى قد تثمر ذات يوم.

ملاحظات

وفي التجربة السورية نقع على العديد من السلبيات التــي شابت الكثير من الكتابات، ويمكــن أن أسجل مؤاخذات تربوية تنصب علــى التوجيــه المباشر والآمــر مما يبعد الطفل عــن التجاوب مع القصيدة، كما إن الطابع الغالب فيه أفــكار عامة وشعارات سياسية وكلام نــثري يخلو من الشاعرية ، وبعض هذه النصوص لا ينسى أن يخاطب الطفل كأنه كبير، فهذا حامد حسن يقول في قصيدة بعنوان «الطفل العربي والوحدة»:

يــا أبــي إنــا تــوحَّــدْنــا وثــرنــا يــا أبــي
والتقى في الساح-ساح المجد- كل العربِ

وطـنـــي حـــرٌّ أبــــيٌّ وأنــــا حـــر أبـــي

(أسامة ١١٦/١٩٧٣)

وفي «حفيـــدة الشموســـ» يقول سليمان العيسى:

الوحدة الطريقْ الوحدة النسبْ
لبيكِ صوتاً واحداً يا أمة العربْ
سيُهزم العدوانْ والمجد للإنسانْ
نبنيه جيلاً ثائراً نعيش للبناءْ

(غنوا يا أطفال ١٠/ ص٨)

وفي قصيـــدة «أطفال العـــرب والعيد» تفرقـــع كلمات مصطفى عكرمة بعيداً عن عـــالم الطفل تمامـــاً، ويُهيَّأ إليـــه أنه يكتب للطفل عندما يقول:

يا عيدنا يا حلوُ لا تحمل لنا لعباً وحلوى
إنا نريد العيد نصراً لا نريد العيد لهوا
قـــل لـــلـــرجـــال الـصـــامـــديـــن
الـصـــانـعـــين لـنـــا الـصـــبـــاحـــا
هذي هدايانا خذوها واشتروا فيها سلاحا

(أنا وأبي ص٣٣)

ويكثر هذا الصوت العالي في أكثر ما كتبه محمـــد منذر لطفي وعيســـى أيوب ومحمد قرانيـــا ومعشـــوق حمـــزة وابراهيم ياسين وفارس قويدر وسمير مراد وغيرهم.

لكن الغريب أن يقـــرر الشاعر والناقد المصـــري أحمد سويلـــم رأيـــاً قاطعاً في تجربتنا منتقداً اهتمامنا بقضية فلسطين والانحصـــار في إطار إقليمـــي ضيق، وهو رأي مستهجـــن لأن الطابع القومي بارز إلى حـــد أننا لا نجد تغنيـــاً بسورية ككيان في الشعر السوري كله تقريباً، فيقول في معرض اللوم والانتقاص:

« والملاحظـــة في التجربة السورية أنهم يتخذون مساحة الشـــام وأحداث فلسطين مادة يقدمونها إلى الطفل، ويجعلونه يعايش تلك الأحداث»

(الأطفال في عيون الشعراء ص٢٠٠)

إن هـــذا التعميـــم علـــى الشعـــراء. . والتخصيص في حصر هـــذا المأخذ يدلان علـــى جهـــل مطبـــق بالتجربـــة الشعرية السورية، ومما يؤكد استنتاجنا ذلك التعداد الذي قام به سويلم لأهـــم شعراء الأطفال لدينـــا إذ يسميهم : سليمان العيسى وخليل الخوري ومحمـــود السيد!! وأحمد الجندي ومحمد الحريري.

ولا أدري إن كان الموضـــوع الفلسطيني بحـــد ذاته مطعنـــاً يمس مـــن يتناوله من الناحية الفكرية!!.

ومن أخطر العيـــوب العيوب التي نرى أن بعضهـــم وقع فيها هو مـــا يمس أصلاً من أصـــول التربية والذوق السليم ، كما في « أغنية إلى منـــى الصغيرة» لعدنان قيطاز التي منها:

عيونها أملْ وخدها قبلْ
وثغرها عسلْ هل تعرف الغزلْ؟
أطوف حولها أروم وصلها
(أسامة ٢٩٣/١٩٨١)

وهذا الخلل وقع عند شفيق جبري ومحمد منذر لطفي وسمير مراد.

ونرى أن ربط الشر باللون الأسود لا يخلو من بقايا إرث عبودي، ليس لائقاً في هذه الأيام، فهذا جمال علوش يقول:

بابا كان بخط النار
يدفع عنا الحقد الأسودْ
(لمن يغني النهر ص١٥)

أو سليمان العيسى:

أتحدَّى شكل العاصفةِ
أتحدى كلَّ سوادْ
(ديوان الأطفال ص٣٦٨)

وقوله:

أن أغسل عني كل ترابي
كل سوادي وغباري
(ديوان الأطفال ص٥١٩)

ويلحظ الباحث أن هناك طغياناً للذكورية، كان واضحاً في بدايات تجارب شعر الأطفال، كما في قول إدوار مرقص في «نشيد مدرسي»:

يا بَني الدرسِ استعدُّوا
أن تكونوا للبلادْ
دَأبُكم حَزْمٌ وجهدُ
إنما الدنيا جهادْ
إنْ تكونوا اليومَ وُلْدا
فغداً أنتم رجالْ
ترتجي الأوطان مجدا
منكمُ باهي الكمالْ
(ديوان إدوار مرقص ص١٤٩)

وقد يصل الأمر بمصطفى عكرمة إلى إهداء مجموعته المسماة « أنا وأبي» - لاحظوا العنوان - قائلاً: «إلى فتيان هذه الأمة الخالدة أتوجه بهذه الأناشيد آملاً أن يكونوا عدتها في غدها المرجو.» ولا نلمح المرأة إلا مرتين في المجموعة من خلال الأم والمعلمة، وهذا يذكرني بالإهداء غير الموفق لعبد الكريم الحيدري في مجموعته الوحيدة إذ يقول: «إلى حضرات رجال التربية والتعليم المحترمين في الوطن العربي الحبيب».

ويعاني شعر الأطفال من الغموض والتعقيد اللغوي ، وهي حالة تشترك فيها اللغة كاداة إيصال والتركيب االمجازي غير المناسب للطفل، وأمثلة ذلك كثيرة جداً ، وهي من أبرز العيوب وأكثرها دوراناً ، حيث تغيب الجملة الموجهة للطفل، الخالية من التقديم والتأخير والتداخل والجزالة إلخ.. وينسى الشاعر عالم الطفل

وخصوصيـــة مدركاته وما يشده ويعنيه من الصور والمعاني.

والاختلالات العروضيـــة واللغوية التي تشيع فيما بـــين أيدينا من نصوص تكشف عـــن الحاجة إلى اهتمـــام الشاعر بأدواته، فالكتابـــة للطفل تقتضـــي مسؤولية لغوية مضاعفـــة، لأن من أهداف النص أن يكون نموذجاً لغوياً للطفل.

نحو الهدف

إن هذه الإشارات السريعة إلى ما تعانيه قصيدة الطفل لا تنفـــي النجاحات المهمة التي قدمها شعراء معروفون وآخرون على طريق النجاح المتواصل، فمن منا لا تجذبه العذوبة في نصوص كثيرة لسليمان العيسى، ففيها قدم الشاعر الفكرة المبتكرة الشفيفة بإطـــار لغوي قـــوي وسلس كمـــا في «عمي منصور»:

عـــمـــي مـــنـــصـــور نجـــارْ
يـضـحـك في يـــده المـنـشـارْ
قـلـت لـعـمـي: عـنـدي لعبـهْ
إصـنـع لي بـيـتـاً للعبـهْ
هـــزَّ الـــرأســـ وقـــالْ:
أنـــا أهـــوى الأطـــفـــالْ
بـعـد قـلـيـل رحـت إلـيـهِ
شـــيء حـلـو بـين يـديـهِ
ســـوَّاه عـمـي مـنـصـورْ
أحـلـى مـن بـيـت العـصـفـورْ
عـــمـــي مـــنـــصـــور نجـــارْ
يـــبـــدع في يـــده المـنـشـارْ

(غنوا يا أطفال ١/ ٣٠)

وفي المساهمات القليلـــة لنجاة قصاب حسن تميُّزٌ وسهولـــة وشاعرية متألقة كما في «الشجرة»:

مـثـلـكَ تحـيـا هـذي الـشـجـرهْ
تـنـمـو تـنـمـو دون تـــوانِ
ومـتـى حـان قـطـاف الـثـمـرهْ
بـشَّ لـهـا وجـه الـبـسـتـاني
إن جـاعـت أطـعـمَـهـا الجـذرُ
أو عـطـشـت روَّاهـــا الـنـهـرُ
وإذا مـا اتَّـسـخـت بـغـبـارٍ
نـظَّـفـهـا بـالمـاء المـطـرُ
مـثـلـك تـألَـم يـا إنـسـانُ
إن قُـطِـعـت مـنـهـا الأغـصـانُ
إزرعْ لا تـقـطـع فـالـشـجـره
تـعـطـي الـدنـيـا أطـيـب ثـمـره

(أسامة ١٦/١٩٦٩)

ومثال عـــذب آخر هـــو «في عيد الأم» لحسيب كيـــالي الذي بشَّر بعطائه القليل - والـــذي انقطع سريعاً- بأنه مشروع جميل في شعر الأطفال لم ياخذ مداه المأمول:

في عيد الأمْ
أتقنت الرسمْ
أحسنت الفهمْ
ومعلمتي قالت: مرحى

هذا إملاؤك قد صحَّا!
وأتيت أبشِّر بي أمي
وأقول لها: لاتهتمِّي
ماذا أُهدي لك في العيدِ ؟
قالت: تهدي لي يا عيدي
أن تأخذ في درس الإملاءْ
أولى، هذا أحلى إهداءْ
أرأيتم أعظم من أمي؟
قولوا لي يا أهل العلمِ

(أسامة ٧٤ /١٩٧٦)

ومثل هذه العذوبة نجدها في «صباح الخير» لجمال علوش:

في صبح عذب مسحورْ
حطَّ على الشرفة عصفورْ
أخرج في فرح مزمارْ
أسمعنا أحلى الأشعارْ
قال صباح الخيرِ
وطارْ

(أناشيد للصغار ص٤)

أو ما كتبه سمير رافع على طريقة شعر التفعيلة بفكرة مبتكرة في «عتاب»:

حرف الثاء المسكينْ
في كل مناسبةٍ
يعتب من حرف السينْ
فالثروة تصبح عنده سروهْ
وثمين الأشياء يصير سمينْ
من يحرث أرضه ليس كمن يحرسها
والثائر في الأرض المحتلةِ
غيرُ السائر بين ظلال التينْ
وإذا أنصفنْا حرفَ الثاءِ
فمن ينصف حرفَ الذال إذنْ
والذال حزينْ

(أسامة ١٩٩٣/٥٠٧)

ومن المساهمات الجميلة للمرأة ما قدمته الشاعرة لينا تقلا في العديد من القصائد التي تقول في إحداها بعنوان «الأشجار»:

ما أحلى هذي الأشجارْ!
تعلوها أحلى الأزهارْ
خضر خضر أشجاري
تزهو بحديقة داري
الأشجار سياج الدارْ
وجمال الكون الأشجارْ

(أسامة ٦١٩ /٢٠٠٤)

إن شعراء الأطفال السوريين كتبوا في مختلف الموضوعات مثل: الوطن والأم والعمل والمعلم والفصول والنبات والحيوانات والجد والأب واللغة العربية والصحة والرياضة وأعلام التراث والمهن والهوايات واللعب وغير ذلك، وما زال شعر

الأطفال يحتاج إلى ابتكار حقيقي في طريقة التعبير عن هذه الأشياء ، وهذا أمر يندر أن نقع على نماذج متألقة له.

وعلى الصعيد الإيقاعي نرى أن الشعراء نظموا بإيقاعات راقصة وقصيرة غالباً، إلا بعض التجارب التي تعود إلى ما قبل منتصف القرن العشرين، ومع النضج الفني ازداد فهم الشعراء لما يتطلبه شعر الأطفال من أوزان قصيرة، وتنويع في التقفية، واللافت أن شكل قصيدة التفعيلة قد بدأ يدخل قصيدة الطفل، وصار الشكل الأمثل للحكايات والشعر القصصي.

ومما يميز شعر الأطفال في سورية أنه منحاز بشدة إلى الفصحى ، وعلى الرغم من وجود نماذج قليلة استخدمت العامية لغرض الغناء، ولسنّ ما قبل المدرسة، فإن الانحياز محسوم للفصحى، بعيداً عن العاميات التي تفسح المجال لبعثرة اللغة القومية الأساسية، وتضعف الدور اللغوي التوحيدي الذي تلعبه الفصحى، بقدرتها على الوصول إلى القارىء العربي الصغير أينما وُجد، وهذا الأمر مع الأسف لا نجده في الكتابة الشعرية العربية للأطفال إلا نادراً، خاصة في أغاني الأطفال المسموعة والمرئية، بل إن هناك من ينشر الشعر بالعامية للأطفال في المجلات.

إنَّ صحافة الطفل في سورية مهتمة بنشر الشعر بصورة ملحوظة، ومبالغ بها أحيانا ً، كما نجد في مجلة «أسامة» و«الطليعي» ، إذ قد تنشر ست قصائد في بعض الأعداد ، وفي المتوسط تنشر المجلة ما لا يقل عن ثلاث قصائد في العدد الواحد، وهو أمر لا نجده في المجلات العربية الأخرى، ما عدا «أحمد» و«توته توته» في لبنان، و «العربي الصغير» في الكويت و«مجلتي» و «المزمار» في العراق و«باسم» الأردنية، بل إن أكثر المجلات العربية لا تنشر الشعر أساساً، وهذا مما يحسب لنا لأن في الأمر إدراكا ً واعياً للرسالة الثقافية في ذلك، وعدم الاستسلام لثقافة التسلية والتشويق التي لا يهمها البحث عن التوازن المطلوب في ثقافة الطفل.

والطلب متواصل على كلمات أغاني الأطفال إذاعياً وتلفزيونياً وفي بعض المهرجانات والمسابقات التي تكاثرت ، لكن الكثير من الاعتباط والتسلُّق يطبع أكثر هذه المحاولات، ولكن النشاط المتنامي ، والاهتمام الثقافي والتربوي، سيدفعان بشعر الأطفال قدماً.

ختـــام

لســت أشك في أن عــددا ً من الشعراء قد كفَّ عــن العطاء أو توقفت تجربته عن التقدم والإضافة، وبعضهم يعد بالمزيد من العطــاءات التي تتجــاوز إنجازها السابق، وستدخــل الساحة أسماء جديدة قد تتفوَّق على الأسماء المذكورة.

إن الرهان الأكبر مستقبلا ً سوف ينصب على نجاح الشاعر في دخول شعر الأطفال انطلاقا ً مــن رؤية ثقافية عميقة، وتجاوز جريء للسائد من طرائــق الأداء الموجودة ، واكتشــاف جماليــات التعبــير من خلال الزوايا المدهشة وغير المطروقة في الدخول إلى الموضوع الشعري، والعناية البالغة بلغة ماسيَّة تتسلَّل إلى الطفل حاملة معها أقصى طاقات الــدفء والتلقائية والمــرح والغنى الموسيقي والتعبــيري، مع التلوين الإيقاعي والمغامرة الموسيقيــة، وعنها سنعرف حقا ً كم إن شعــر الأطفال صعب وجميل ودقيق ، وكم إن خوضه يحتاج إلى موهبة ومعرفة وأسرار خفية!. ■■

المصادر والمراجع

الأناشيـد المدرسية. جـزآن. مطبعة السلام. بغداد ١٩٢٧.
البيات، زكريا
مجموعـة الأغاريـد. مطبعـة الإخلاص. دمشق ١٩٢٤.
نخبة الأغاريد. (مع توفيق حمدون) مطبعة التوفيق. دمشق ١٩٣٥.
التقي، أديب
ديوان التقي. بلا.
الحبال، بدر الدين وآخرون
الكتـاب الوحيـد لدروس اللغـة العربيـة. المطبعة الهاشمية. دمشق ١٩٤٠.
حسون، رزق الله
النفثات. لندن. مطبعة هرتفرد ١٨٦٧.
الحيدري، عبد الكريم
حديقــة الأشعـار المدرسيــة. مطبعــة النصر. حلب. طبعة مزيدة بلا تاريخ.
السفرجلاني، عبد الرحمن
سلسلـة الدروس العربيـة (ثلاثـة أجـزاء) مطبعة الترقي. دمشق ١٩٢٣.
الاستظهـار المصور (مع جميل وأنور سلطان) مطبعة الترقي. دمشق ١٩٣٤.
سويلم، أحمد
أطفالنـا في عيـون الشعـراء. دار المعـارف. القاهرة ١٩٨٨.
شقرا، جسماني
روضـة الأطفـال. المطبعـة الأدبيـة. بـيروت ١٩٣٢.

شلحت، جرجس
النخبة. المطبعة المارونية. حلب ١٩١٠.
صابونجي، لويس
أصول القراءة العربية والتهذيبات الأدبية. بيروت ١٨٦٦ .بلا.
الصواف، مصطفى (وحمدي الزركلي)
علم الموسيقى. المطبعة الحديثة. دمشق ١٩٢٧.
علوش، جمال
لمن يغني النهر؟ وزارة الثقافة. دمشق ١٩٦٨.
أناشيد الصغار (مشترك) دار الحدائق. بيروت ٢٠٠٦.
عكرمة، مصطفى
أجمل ما غنى الأطفال. دار الفكر. دمشق ١٩٨٧.
أنا وأبي. اتحاد الكتاب العرب. دمشق ١٩٩٦.
العقيلي، مجدي
منتخبات الأناشيد العربية. مطبعة الشباب. حلب ١٩٥٠.
موسيقا وأغاريد الطفولة. مطبعة الاتحاد. الإسماعيلية ١٩٥٢.
العيسى، سليمان
ديوان الأطفال. دار الفكر. دمشق ١٩٩٩.
غنوا يا أطفال (عشرة أجزاء) دار الآداب. بيروت ١٩٧٨.
الفرا، نهاد
النشيد والموسيقا. وزارة التربية. دمشق ١٩٧٤.
مرقص، ادوار
ديوان إدوار مرقص. المطبعة التجارية. اللاذقية ١٩٣٥.
المقدسي، إلياس
نوادر وفكاهات من أحاديث الحيوانات. دمشق ١٩١٣. بلا.
مجلة «أسامة» الصادرة عن وزارة الثقافة في سورية.

☆ ☆ ☆